بيان الدواء النافع في حضور القلب

يطل على القلب نافذتان:

إحداهما: خارجية تطل على العالم الخارجي بواسطة الحواس.

والثانية: داخلية تطل على العالم الداخلي بواسطة النفس الأمارة بالسوء ويدخل منها الشيطان، فلابد إذن من إغلاق هاتين النافذتين ليتصل القلب رأساً بالله سبحانه وتعالى، ويحصل من جراء ذلك الخشوع في الصلاة.

فالدواء النافع إذن في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر الداخلية والخارجية.

1 - الخواطر الخارجية: تأتي عن طريق الحواس: كالسمع والبصر. ولقطع هذه الأسباب يحاول المرء بأن يغض من بصره ما أمكن أثناء الصلاة بأن يقترب من حائط مثلاً عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره،

obeikandl.com

ويحترز من الصلاة أمام النوافذ المطلة على الشوارع، أو الصلاة أمام جدار فيه صور أو نقوش أو كتابة.

قال سفيان الثوري: من قرأ كلمة مكتوبة في حائط أو بساط في صلاته فصلاته باطلة. وهذا القول قاله من شدة ورعه.

عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لينْتهيَنَّ أقوامٌ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، أو لا ترجع إليهم**»[1]. وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قام الرجل في الصلاة أقبل الله عليه بوجهه، فإذا التفت قال: يا ابن آدم إلى من تلتفت؟ إلى من هو خيرٌ لك مني؟ أقبل إليَّ، فإذا التفت الثانية قال مثل ذلك. فإذا التفت الثالثة صرف الله تبارك وتعالى وجهه عنه**»[2].

وكان [عليه الصلاة والسلام] يقطع أسباب هذه الخواطر إذا شغلته عن الصلاة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن النبي ﷺ صلى في خميصة لها أعلام فنظر إلى أعلامها نظرة فلما انصرف قال:

(1) رواه مسلم، وأبو داود، وابن ماجه.
(2) رواه البزار.

«اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم وأتوني بأنبجانية أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي»[1].

والأنبجانية: كساء غليظ لا علم فيه.

وعن عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: «إن أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه كان يصلي في حائط له، فطار دُبْسيٌّ فطفق يتردد يلتمس مخرجاً فلا يجد، فأعجبه ذلك، فجعل يُتبعه بصرَه ساعة، ثم رجع إلى صلاته، فإذا هو لا يدري كم صلى، فقال: لقد أصابني في مالي فتنة، فجاء إلى رسول الله ﷺ فذكر له الذي أصابه في صلاته، وقال: يا رسول الله هو صدقة فَضَعْه حيث شئت»[2].

الدبسي: هو طائر صغير. قيل: هو ذكر النمام.

الحائط: البستان.

ورواه عن طريق آخر فلم يذكر فيه أبا طلحة ولا رسول الله ﷺ ولفظه: «إن رجلاً من الأنصار كان يصلي في حائط له بالقَفِّ - وادٍ من أودية المدينة - في زمان التمر؛ والنخل قد ذُلِّلت وهي مطوقة بثمرها، فنظر إليها فأعجبته، ثم رجع إلى صلاته، فإذا هو لا يدري كم

(1) رواه البخاري.
(2) رواه الإمام مالك.

صلى. فقال: لقد أصابني في مالي فتنة، فجاء عثمان رضي الله عنه وهو يومئذٍ خليفة، فذكر ذلك له، وقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الخير، فباعه بخمسين ألفاً فسمي ذلك المال الخمسين». ولعل هذا شخص آخر من الأنصار غير الأول والله أعلم.

الخواطر الداخلية: وهي أشد وأقوى من الخواطر الخارجية، فإن الخواطر الداخلية تأتي من وسوسة الشيطان وحب الدنيا، فالمرء أثناء الصلاة يفكر في المال والنساء والولد والتجارة والوظيفة. فلا ينحصر فكره في فن واحد، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب، وهذه الخواطر والشهوات كثيرة، وقلما يخلو العبد منها، ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا، حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك.

والذي يقوي حب الدنيا في قلب الإنسان الشيطان، فهو حريص على أن يشغل العبد عند صلاته حتى أنه يفتح له عند قيامه إلى الصلاة من الحوائج ويذكره أشياء من الأمور التي تهمه في دنياه لم تكن له قبل الصلاة على بال.

وحكي أنه ضاع لرجل شيء من متاعه ولم يدر من

استعاره منه، فلما دخل في الصلاة تذكر من استعاره منه، فلما فرغ من صلاته قال لغلامه: اذهب إلى فلان واسترد منه المتاع الفلاني. فقال له الغلام: متى تذكرته يا مولاي؟ فقال: تذكرته حين كنت في الصلاة. فقال له: يا مولاي كنت في صلاتك طالباً لمتاعك لا طالباً للرب الخالق الرزاق، فبلغ من بركة خشوع هذا الغلام في الصلاة واعتقاده بها أن أعتقه مولاه من حسن موعظته.

عن عثمان بن أبي العاص أنه أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلْبِسها عليَّ. فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك شيطان يُقال له خِنْزَب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً**». قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني»[1].

حال بيني وبين صلاتي: أي نكدني فيها ومنعني لذتها والخشوع فيها.

يلبسها: أي يخلطها ويشككني فيها.

التفل: نفخ لطيف مع ريق يسير.

وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى

(1) رواه مسلم.

الجهات، فلذلك ينبغي حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة.

قال محيي الدين بن العربي: «كما يحرم عليك في صلاتك التوجه لغير القبلة كذلك يحرم عليك التوجه بقلبك لغير الله تعالى من دار وأهل ودكان ومال وغير ذلك، وكما يحرم عليك أن تتلو غير كلام الله في صلاتك يحرم عليك أن تناجي في قلبك غير الله تعالى فإنه لا يقبل من صلاتك إلا ما عقلت.

أما الدواء النافع لقطع أسباب الخواطر الداخلية فإنه يتمثل بطريقتين:

أولاهما: قطع شجرة حب الدنيا من القلب لأنها أصل كل خطيئة، وقد كثرت الآيات والأحاديث النبوية التي تحذرنا من حب الدنيا والركون إليها وقد انقسم الناس بعد رسول ﷺ أربعة أقسام:

- قسم لم يريدوا الدنيا ولم تردهم، كالصديق رضي الله عنه ومن سلك سبيله.

- وقسم أرادتهم الدنيا ولم يريدوها كعمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن سلك سبيله.

- وقسم أرادوا الدنيا ولم تردهم كمن أفقر الله منها يده وأسكنها في قلبه وامتحنه بجمعها.

- وقسم أرادوا الدنيا وأرادتهم كخلفاء بني أمية ومن سلك سبيلهم، عدا عمر بن عبد العزيز فإنها أرادته ولم يردها.

وقد أخبر النبي ﷺ أن أقربهم منه مجلساً ذوو التقلل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها.

عن محمد بن عمرو قال: سمعت عراك بن مالك يقول: قال أبو ذر رضي الله عنه: «إني لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة وذلك أني سمعته يقول: «**إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها**». وإنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث منها بشيء غيري[1]. وإذا رأيتم من يزهد في الدنيا فادنوا منه فإن مغاليق أفكاره تتفتح وينابيع قلبه تتفجر بالحكمة.

روي عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم من يزهد في الدنيا فادنوا منه، فإنه يلقى الحكمة**»[2].

والله سبحانه وتعالى قد حمى أولياءه عن الدنيا

(1) رواه الإمام أحمد.
(2) رواه أبو يعلى.

وصانهم عنها كما يحمي أحدنا مريضه عن الطعام الضار. عن محمود بن لبيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله تبارك وتعالى يحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مرضاكم من الطعام والشراب تخافون عليهم»**[1].

ولهوان الدنيا على الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه.

عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من أمتي من لو أتى باب أحدكم فسأله ديناراً لم يعطه إياه، ولو سأله فلساً لم يعطه إياه، ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إياه، ولو سأله الدنيا لم يعطها إياه، وما يمنعها إياه لهوانه عليه، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»**[2].

وهذا يدل على أنه إنما يمنعه إياها لهوانها عليه، لا لهوانه هو عليه، ولهذا يعطيه أفضل منها وأجل.

ولهوانها على الله لم تعدل عند الله جناح بعوضة.

روي عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول

(1) رواه الإمام أحمد.
(2) رواه الإمام أحمد.

الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**»[1].

قالوا: وقلّ أن يقع إعطاء الدنيا وتوسعها إلا استدراجاً من الله لا كرماً ومحبة لمن أعطاه. قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج**»[2] ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[3]. والله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا من يحب، وأخبر أنه زينها لأعدائه ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم في الآخرة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمعُ من لا عقل له**»[4].

(1) رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(2) رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود الطيالسي، والبيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر. قال العراقي: إسناده حسن، وتبعه المؤلف فرمز لحسنه، قال الهيثمي: رواه الطبراني عن شيخه الوليد بن العباس المصري، وهو ضعيف.
(3) سورة الأنعام، الآية: 44.
(4) رواه الإمام أحمد، والبيهقي وزاد: (ومال من لا مال له).

وإن مثل الدنيا في الآخرة كمثل ما يعلق بإصبع من أدخل إصبعه في البحر. وأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم، وأنها خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق، وأنها سجن المؤمن وجنة الكافر. وأشبه الأشياء بالدنيا الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه.

وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب.

وأشبه الأشياء بها المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره، فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له.

ومثلت الدنيا بمزرعة والعمل فيها البذار، والحصاد يوم المعاد.

ومثلت بدار لها بابان باب يدخل منه الناس وباب يخرجون منه.

ومثلت بحية ناعمة الملمس حسنة اللون ولدغتها الموت.

ومثلت بطعام مسموم لذيذ الطعم طيب الرائحة من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه.

ومثلت بامرأة عجوز شوهاء قبيحة المنظر قد انتقبت عن عينين فتنت بهما الناس، وهي تدعو الناس إلى منزلها، فإذا أجابوها كشفت لهم عن منظرها وذبحتهم بسكاكينها وألقتهم في الحفر، وقد سلطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديماً وحديثاً، والعجب أن عشاقها يرون إخوانهم صرعى وهم يتنافسون في مصارعهم. وقال الله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلائق فيقال: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها وبها تقاطعتم وبها تحاسدتم وتباغضتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: يا رب أين أتباعي وأشياعي فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها**»[2].

والإنسان في هذه الدنيا كمثل راكب استظل تحت

(1) سورة إبراهيم، الآية: 45.
(2) ذكره ابن أبي الدنيا.

شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها. وقال عيسى عليه السلام: «الدنيا ثلاثة أيام: يوم أمس قد مضى ما بيدك منه شيء، ويوم غد لا تدري أتدركه أم لا، ويوم أنت فيه فاغتنمه».

والدنيا ثلاث ساعات: ساعة مضت وساعة لا تدري أتدركها أم لا، وساعة أنت فيها فاغتنمها، فلست تملك بالحقيقة إلا ساعة واحدة.

والدنيا ثلاثة أنفاس: نفس مضى عملت فيه ما عملت، ونفس لا تدري أتدركه أم لا، ونفس أنت فيه فلست تملك إلا نفساً واحداً لا يوماً ولا ساعة، فبادر في هذا النفس الواحد إلى الطاعة قبل أن تفوت وإلى التوبة قبل أن تموت، فلعلك في النفس الثاني تموت.

إن الدنيا منزلة وليست بدار قرار، والإنسان مسافر فأول منازله بطن أمه، وآخر منازله لحد قبره، وإنما وطنه وقراره ومكثه في الحقيقة هي الدار الآخرة. فكل سنة تنقضي من الإنسان فكالمرحلة، وكل شهر ينقضي منه فكاستراحة المسافر في طريقه، وكل أسبوع فكقرية تلقاها، وكل يوم فكفرسخ يقطعه، وكل نفس كخطوة يخطوها، وبقدر كل نفس يتنفسه يقرب من الآخرة.

قال عيسى عليه السلام للحواريين: أيكم يستطيع أن يبني

على موج البحر داراً؟ قالوا: يا روح الله من يقدر على ذلك؟ قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً.

وقد سئل عيسى عليه السلام عن رجلين مرَّ أحدهما بلبنة من ذهب فتخطاها ولم يلتفت إليها، ومرَّ بها الآخر فأخذها وتصدق بها. فقال: الذي لم يلتفت إليها أفضل.

ويدل على هذا أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يلتفت إليها ولو أخذها لأنفقها في سبيل الله.

وقد سئل الحسن البصري رحمه الله: عن رجلين أحدهما تارك للدنيا والآخر يكتسبها ويتصدق بها. فقال: التارك لها أحب إلي.

قال لقمان لابنه: يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها التقوى، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل لعلك تنجو، وما أراك ناجياً.

وثانيها: أن تُشغل نفسك أثناء الصلاة في فهم ما تقرأ فيها من القرآن الكريم وتعرف معاني أعمال الصلاة وغايتها.

وكان الصحابة والسلف الصالح يعتريهم الخوف من الله تعالى والغشيان والصعق إذا سمعوا القرآن الكريم.

قال الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1]. أي اقرأ القرآن أثناء قيامك في الليل قراءة تثبّت وتؤدة وتمهل، ليكون عوناً لك على فهم القرآن وتدبره.

قال الخازن: لما أمره تعالى بقيام الليل أتبعه بترتيل القرآن، حتى يتمكن المصلي من حضور القلب، والتفكر والتأمل في حقائق الآيات ومعانيها، فعند الوصول إلى ذكر الله سبحانه وتعالى يستشعر بقلبه عظمة الله وجلاله وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل له الرجاء والخوف، وعند ذكر القصص والأمثال يحصل له الاعتبار، فيتنير القلب بنور معرفة الله تعالى؛ والإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني، فظهر بذلك أن المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب عند القراءة.

وقد كان رسول الله ﷺ يُقطِّع القراءة حرفاً حرفاً - أي يقرأ القرآن بتمهل، ويخرج الحروف واضحة - لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ.

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قدمت المدينة المنورة

(1) سورة المزمل، الآية: 4.

لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝٢﴾ فلما قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾، فكأنما صدع قلبي فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، فلما انتهى إلى هذه الآية: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾[1] كاد قلبي أن يطير.

قرأ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠﴾ فخر مغشياً عليه وهو يضطرب على الأرض ساعة طويلة.

وسمع الربيع بن خيثم - رحمه الله تعالى - قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ فخر مغشياً عليه، ثم حمل إلى بيته ففاته صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكان هو الإمام في حيِّه. وفي رواية: كان القارئ عبد الله بن مسعود.

وكان ميمون بن مهران - رحمه الله تعالى - يقول: سمع سلمان الفارسي رضي الله عنه قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ

(1) سورة الطور، الآيتان: 35، 36.

جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فصاح ووضع يده على رأسه وخرج هائماً لا يدري أين يتوجه مدة ثلاثة أيام.

وقد قرأ رسول الله ﷺ يوماً قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾[1]. وكان وراءه حمران بن أعين فخر ميتاً رضي الله عنه.

وكان أبو سليمان الداراني - رحمه الله تعالى - يقول: «ما رأيت أحداً أكثر خشوعاً من الحسن بن صالح رحمه الله قام ليلة إلى الصباح بسورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يرددها ويغشى عليه إلى الفجر ولم يتم السورة، وكان كلما غشي عليه يجدد طهوره».

وكان الحسن بن صالح مرة يؤذن فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله» فغشي عليه، فحملوه من المنارة ونزلوا به وصعد أخوه فأذن وصلى بالناس والحسن في غشيته».

وكان أبو سليمان الداراني - رحمه الله تعالى - يقول: «صلى سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - ركعتين خلف المقام، ثم نظر إلى السماء فانقلب مغشياً عليه. قال الداراني: وما فعل به ذلك مجرد نظره إلى السماء، وإنما ذلك من التفكر في أهوال القيامة».

---

(1) سورة المزمل، الآيتان: 12، 13.

وصلى الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - الفجر يوماً فقرأ (يسّ) فلما بلغ قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فسقط ابنه علي - رحمه الله - فلم يفق حتى طلعت الشمس وكان علي هذا إذا أراد أن يقرأ سورة لم يقدر أن يتمها، وكان لا يقدر أن يسمع سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، ولا سورة القارعة. وكان يقول لوالده: ادع الله لي أن يقدرني على سماع سورة كاملة أو على ختم القرآن ولو مرة قبل موتي. ولما مات علي رَحِمَهُ اللَّهُ ضحك أبوه الفضيل فقيل له في ذلك، وكان كثير الحزن فقال: إن الله أحب موته فأحببت ذلك لحب الله.

فتأمل يا أخي في أحوال سلفك، فهل سمعت الآن أحداً صعق من سماع القرآن الكريم؟! كلا فإن هذا لا يحدث في هذا العصر لقسوة القلوب وانتشار المعاصي والفسوق.